في نطاق بحثنا عن بيئة المغول وحياتهم الاجتماعية ، سوف يكون موضوع ما نتكلم عنه في هذا العدد ، وهو الديانة التي كان المغول يعتنقونها قبيل ظهورهم على مسرح أحداث التاريخ ، وما صاروا إليه بعد أن خضعت لسلطتهم أمم وشعوب ذات أصول مختلفة وحضارات متباينة .

المغول والوحدانية

بقلم الدكتور : سعد حذيفة الغامدي

لا يكاد يخلو أي مجتمع من مجتمعات الدنيا ، في أية بقعة من بقاع الأرض ، من شعور أفراده بالتقديس والتبجيل والاحترام لأي شيء ، خفيًا كان أم مرئيًا ، جمادًا كان أم حيوانًا ، حتى أنه قد يكون ذلك الشيء إنسانًا ، كما كانت عليه حالة مصر وفراعنتها . ثم يكون ذلك الشيء هو رب ومعبود لأفراد وجماعات ، أي مجموعة من البشر يقطنون أرضًا . وقد يكون الدافع لهذا المعبود ، إما الخوف منه ، فيُعْبَدُ لاتقاء شره ، وإما لأنه مصدر شيء يعتمد ذلك المجتمع عليه ، أو أن يكون ـ حسب اعتقادهم ـ حاميًا ومدافعًا لهم ضد شيء آخر يعتقدون الشر فيه أو الضرر منه ، فيعبدون ذلك ليدفع عنهم الشر. والمغول مثلهم في هذه الظاهرة مثل أي مجتمع آخر.

وأول من طرق هذه الناحية من مؤرخينا المسلمين ، هو ابن الأثير ـ رحمه الله ـ في معرض كلامه عن المغول ، وعن ابن الأثير نقل من جاء بعده . وقد ذكر مؤرخنا هذا بأنهم يسجدون للشمس عند طلوعها⁽¹⁾ . وكما قلنا من قبل ، إن ابن الأثير لم يكن يدون معلوماته عن المغول أو عمن يسميهم «التتار» عن اطلاع مباشر ، أو نقلاً عن شاهدي عيان ؛ سواء أكان ذلك مباشرًا أم غير مباشر ؛ بل كان يدون ما يعرفه عنهم معتمدًا على ما كان يسمعه ، أو تناقلته الأخبار⁽²⁾ . إذ أن رواية ابن الأثير هذه تشير بوضوح إلى أن معبود المغول يتمثل في الشمس ، ويتخذون منها إلهًا لهم ، فيعبرون عن عبادتهم وتقديسهم لها بالسجود عند طلوعها من المشرق . ومع ذلك فإن كلام مؤرخنا ليس خطأً بالكلية ، حيث أن الشمس تُكوِّن واحدًا من المعبودات لدى مجتمع المغول ، كما سيأتي ذلك بعد قليل .

وقد اعتمدتُ في إعداد هذا البحث ، وفي هذا الموضوع بالذات ، على مراجع كتبها مؤرخون عاشوا مع المغول . فبعضهم عاش طوال حياته ، أو معظم حياته ، والبعض الآخر سكن بين ظهرانيهم مدة كَفَتْه ليدوِّن معلوماته عنهم بكل دقة ، وعن تجربة شخصية . وهؤلاء المؤرخون هم : «**الجويني**» و«**جون الكريبيني**» و«**وليم الروبركي**» وغيرهم،وسيرد ذكر تلك المراجع تباعًا كل في مكانه المخصص له .

أول أولئك المؤرخين هو «**جون البلانو الكريبيني**» ثم جاء بعده «**وليم الروبركي**» ، فيذكر كل من الرحالتين أن الشمس تُكَوِّنُ واحدًا من عدة أشياء يعبدها أفراد المجتمع المغولي . ومع ذلك فإن المغول يعبدون آلهاً واحدًا ؛ فهم يؤمنون بأنه هو الخالق لكل الأشياء المرئية وغير المرئية ، وإنه هو وحده مُوجد ومعطي جميع الأشياء الطيبة في هذه الدنيا ، كما أنه هو الذي أوجد الضيق ، والحرمان ، والمشاق ، وما يتعرض له الإنسان من أضرار . ويعتقد المغول بأن ربهم المعبود يتربع فوق تلك السماء الزرقاء باسم «تنكَري»⁽³⁾ .

على الرغم من اعتقاد المغول في هذا الرب ، إلا أنهم لا يعبرون عن عبادتهم لذلك الرب ، لخالد والمعطي في السماء ، من الصلوات ، أو الدعاء في مكان مخصوص ، أو القيام بعمل

احتفال معين لهذا الغرض ، أو بطقوس من أي نوع . ومع أنهم يؤمنون بالرب الذي في السماء ، فإن هذا لم يمنعهم من اتخاذ أوثان وتماثيل مجسّدة في صور الآدميين ، مصنوعة من اللبود أو من مواد غيرها ، كالحرير مثلاً ؛ فيقومون بوضع هذه التماثيل على جانبي مدخل المنزل ، وإلى أسفل هذه الصور يضعون تمثالاً مصنوعًا أيضًا من اللبود وعلى هيئة الضرع . وهم يعتقدون أن هذه الصور ما هي إلا حراس لمواشيهم ، والتي تهب لهم نعمة الحليب ، والتي تلد لهم العجول ، وفوق هذا «المهور» وهي أغلى حيوان لدى المغول .

لهذا نجد أن المغول يعظمون هذه التماثيل ، ويُجلُّونها إجلالاً كبيرًا . وقد يضع المغولي بعضًا من هذه التماثيل خارج منزله أمام الباب في عربة جميلة مزينة الحجم مغطاة ، فإذا ما أقدم شخص على سرقة أي شيء من هذا المنزل ، فإنه يقتل دون رحمة أو رأفة به أو بذويه . كما يصنعون تماثيل لرؤسائهم وخاناتهم ، فتوضع خارج المنازل ، وتقدم لها القرابين ، لأسباب سيرد معنا ذكرها .

وعندما يرغب المغول في صنع شيء من هذه التماثيل ؛ فإن السيدات الكبار لمختلف الأسر يقمن بعمل اجتماع فيما بينهن ، حيث ينجزن صنع تلك التماثيل ، وعند الانتهاء من هذا العمل يذبحون شاة فيأكلون اللحم ، ويحرقون عظامها بالنار .

وعندما يصاب طفل بمرض ، فإنهم يصنعون له تمثالاً صغيرًا من هذا النوع ، ويضعونه بجانب فراش ذلك الطفل المريض علّه يتماثل للشفاء . كما يحتفظ رؤساء العشائر ، وكبار المجتمع المغولي ، وكبار القادة العسكريين بشيء من هذه التماثيل ، فتوضع في مكان خاص ـ عادة في وسط المنزل ـ وتجسد هذه التماثيل صورًا لأشخاص كانوا قد ماتوا ، إذ يقوم ابن الرجل المتوفي ، أو المرأة المتوفاة ، أو أن تقوم امرأة الرجل المتوفي ، أو أي شخص مات له عزيز ، بصنع تمثال له أولها ، ويوضع في أي مكان من هذه الأماكن (خارج أو داخل أو في مدخل المنزل) وذلك للاحترام ، والتبجيل لعين الشخص المتوفي ، وهي لا ترمز بأي حال من الأحوال للرب «تنكَري» أو للعبادة له في السماء ، لأن الرجل العراف ـ وهذا ما سنتكلم عنه

فيما بعد ـ يقول : «إننا لا نصنع هذه المجسمات للرب ، ولكنه عندما يموت رجل غني من رجالنا ، فإن ولده أو زوجته ، أو أي شخص عزيز لديه ، يصنع له تمثالاً على هيئة ذلك الرجل الميت ، ويضعه هنا ، لذلك فإننا نجلها إحياء لذكراه فقط(٤) ...

وعندما يصنع المغول حفلة لأي مناسبة كانت (**زواج أو احتفال بأول الشهر مثلاً**) فإنهم يأتون بتلك التماثيل ؛ ثم يأتون لزيارتها ، فينحنون أمامها عند الدخول ، ويجلونها ويقدسونها ، ولا يسمح لأي إنسان غريب قط بالدخول عليها(٥) .

أما ما رواه لنا «**ماركوبولو**» في هذا الشأن فلا يكاد يختلف كثيرًا عما أورده «**وليم الربركي**» حيث يقول : إن المغول يقولون بأنه يوجد إله سماوي ، سامٍ ورفيع ؛ ويسألونه كل يوم بتلهف صادق ، أن يمن عليهم بالصحة وفَهْم أفضل لما يحبه . ويذكر هذا الرحالة بأنهم لا يعبدون الأصنام ، وان من آلهتهم إله الأرض ، فهو الذي يعتني بنسائهم وأولادهم ومواشيهم ، ومحصولاتهم الزراعية(٦) . ومن أجل ذلك فانهم يعظمونها ويجلونها كثيرًا . ولهذا فان كل واحد منهم يضعه في أحسن وأفضل مكان داخل منزله . ويصنعون هذه الآلهة من اللبود ، ومن أنواع كثيرة أخرى من القماش .

ويعتقد المغول ـ حسبما أورده **ماركو بولو** ـ أيضًا بأن الآلهة تلك لها زوجات ، ولها أولاد ، فيصنعون لها تماثيل أخرى صغيرة ، ويقولون بأنهم أولاد تلك الآلهة ، كما يصنعون لها تماثيل تقوم مقام الزوجات . فيضعون الزوجات إلى الجانب الأيسر من الآلهة ، كما يوضع الأطفال أمام أبيهم ، وهم في وضع احترام لوالدهم . وعندما يجهزون وجباتهم الغذائية الثلاث ، وقبيل أن يشرعوا في تناول أية وجبة منها ، فانهم يأخذون قليلاً من المرق أو الماء الذي طبخ فيه اللحم ، فيغسلون به أفواه التماثيل ، ثم ينضحون شيئًا منه أيضًا خارج المنزل أو الغرفة التي فيها الآلهة ؛ إكرامًا لها ولأرواح أقرباء الأسرة المتوفين الآخرين . وبعد الانتهاء من هذه العملية ، أو الطقوس الدينية ، فانهم يشرعون في الأكل قائلين بأن تلك الآلهة قد أخذت ما يخصها من الوجبة الغذائية المعدة لأفراد الأسرة(٧) .

ومن القرابين التي تقدم لتلك التماثيل والصور «الحليب» إذ أن حالب الفرس أو البقرة أو غيرها ، يبدأ بتقديم أول حلبة من ذلك الحيوان لها . كما يقوم المغول بإعطاء تلك الآلهة شيئًا من طعامهم أو شرابهم ـ كما سبق القول ـ قبيل الشروع في تناول ذلك الأكل أو الشراب. وحينما يذبحون حيوانًا ـ من أي نوع كان ـ فانهم يقدمون قلب تلك الذبيحة في كأس كقربان لذلك التمثال الموجود في داخل العربة الصغيرة التي تربض خارج المنزل ، ويظل القربان أمام ذلك التمثال حتى صبيحة اليوم التالي ؛ حيث يؤخذ ثم يطبخ ويأكلونه .

ومن القرابين الأخرى عند المغول الخيول وغيرها من حيواناتهم ، فتقدم على شكل أوقاف ـ ان صح لنا استخدام هذا التعبير ـ فالخيل التي توقف لتلك الآلهة تصبح محرمة ، لا أحد يركبها حتى تموت . أما الحيوانات الأخرى الموقوفة ؛ فانه عندما يذبحها المغول بغرض الأكل فانهم يأخذون عظامها لئلا تتهشم ، فيحرقونها في النار . أما الإهاب فهو الجزء الوحيد من ذلك القربان الذي يقدم قربانًا لآلههم «تنكَري» . وهذا ما استخلصه الأستاذ الدكتور : ج. أ. بويل ، من مقالة له حول «كيفية تقديم الحصان كفداء عند المغول في القرن الثالث عشر والرابع عشر» حيث يقول : «بأن من الاشياء التي تقدم قربانًا إلى «تنكَري» جلد أو إهاب الحصان الذي يذبح على قبر من مات حديثًا ، فيؤخذ ذلك الاهاب ويعلق على عمود قائم يراد التقرب به إلى ذلك الرب ، كما أن المغول ينحنون أمام تلك التماثيل متوجهين جهة الجنوب ، كما أنهم يجبرون أي غريب قدم إليهم بالانحناء لتلك التماثيل(٨) .

وبالإضافة إلى هذه الطقوس والقرابين التي تقدم لتلك الصور والتماثيل ، فإن أفراد المجتمع المغولي يجلّون أشياء أخرى . من هذه الأشياء ـ كما قال مؤرخنا المسلم ابن الأثير ـ الشمس هذا بالإضافة إلى القمر ، والنار ، والماء ، والأرض . ويعبرون عن تبجيل وتقديس هذه الأشياء بتقديم الطعام والشراب لها أولاً وقبل أن يأكلوا أو يشربوا وبخاصة في باكورة يومهم ؛ أي في الصباح . ان هذا النوع من التعبد المبسط يكاد يكون النمط العام المتبع لدى كل مجتمع بدوي ؛ حيث يتأثر بما يراه في حياته اليومية في السهول المنبسطة ، من أجرام سماوية ، وما يطرأ عليها من تغيير ، وما يحدث في السماء من برق ، ورعد ؛ ثم ما ينتج عنها من عواصف وأعاصير .

فكل هذه الأشياء خلقت لدى الفرد البدوي ـ وبخاصة المغولي ـ الخوف والرهبة أمام هذه الأشياء ، كما خلق عنده تقديس وتبجيل الكثير منها(٩) .

فعندما يكون القمر هلالاً ، أي في أول ليلة من ليالي الشهر ، أو عندما يصير بدرًا ، فان المرء المغولي يشرع في أي عمل أو مهام يريد أن ينجزها . لهذا فالمغول يسمون القمر «الإمبراطور العظيم» ، وينحنون إليه ، وذلك بثني الركبتين ، ويصلون له ، كما يقولون عن الشمس بأنها أم القمر ، لأنها تمده بالنور الذي نراه عليه .

أما بالنسبة لعبادتهم للنار ، فإنهم يعتقدون بأن أي شيء ، حيوان أو إنسان أو جماد ، لا يطهر إلا بالنار . لذلك فهي آله منقٍ لكل شيء من كل شائبة ، أو أي ضرر ، أو أي أعمال سحرية ربما تكون قد أودعت في ذلك الشيء . لهذا نرى المغول يجبرون كل فرد من خارج مجتمعهم ، قدم إليهم لأية مهمة كانت ، سياسية أو تجارية أو دينية ، أن يمرروه بين نارين متقدتين ، ومعه ما كان يحمله من هدايا أو متاع مهما كانت مرتبته أو مركزه الاجتماعي بين قومه . لأن النار ـ في زعمهم ـ تنقيه من أية شائبة عالقة به ، كالسم أو السحر أو الشعوذة ، أو من أي عمل قد يراد به الضرر للرئيس المغولي ، أو لأي فرد منهم ، أو الإضرار بحيواناتهم . وعندما يصاب أي إنسان منهم ، أو حيوان من حيواناتهم بشهاب من السماء ، كضربة نارية من برق (وهذه الأشياء تحدث في منغوليا بكثرة نظرًا لشدة تطرف المناخ) فإنهم يعتقدون أن ذلك الإنسان أو الحيوان غير طاهر وأنه نجس ؛ لهذا فانه يتحتم عليهم أن يطهروه بالنار ، وذلك بأن يجعلوه يمر بين نارين .

أما ما يعتقده المغول عن الآخرة فيقول «**جون الكريبي**» : إنهم لا يعرفون عن الآخرة الشيء الذي يعرفه هو ، ولا عن العذاب السرمدي بعد الموت ، وما يجرى لهم في الحياة الآخرة . ولكنهم يعتقدون بأنه بعد المات ؛ سوف يعيش المرء منهم حياة ثانية في عالم ثان ، وأن مواشيه وحيواناته سوف تتضاعف وتزيد أعدادها ، وأنه سوف يأكل ويشرب ويقوم بجميع الأعمال التي يقوم بها في هذه الحياة الدنيا ، وأنه سيكون له أسرة ، وسيصبح في مجتمع عالم آخر ، كما

كان عليه حاله في عالمه الأول أثناء حياته(١٠) وهذا ما سنتكلم عنه في «اعتقاد المغول في الحياة الآخرة» .

● تسامح المغول الديني ●

بعد أن ظهر المغول من عزلتهم الاجتماعية ، وسيطروا على شعوب ذات أديان مختلفة ونحل شتى ، لم يثبت أن القادة المغول أجبروا أمة من الأمم أو مجتمعًا ممن أخضعوهم تحت نفوذهم باعتناق الديانة المغولية ، أو إجبارهم على اتباع دين بعينه من أديان الأمم التي كانت خاضعة لهم، فقد عرف عن المغول التسامح الديني ، فتركوا لشعوب الدول التي غزوها الحرية في انتهاج الدين الذي يرتضونه ، بل نجد أن المغول أنفسهم يتأثرون بديانات تلك الشعوب التي خضعت لهم ، بمعنى أن المغولي ترك دين الآباء والأجداد في داخل وطنه الأصلي في منغوليا ، واعتنق دين البلد الذي نزل فيه بالغزو .

أما ما كان يجري في داخل البلاط المغولي ، فقد كانت العاصمة المغولية «قرا ـ قروم» مكتظة بأناس من أتباع ديانات مختلفة (سماوية كالدين الاسلامي والديانة المسيحية واليهودية أو وثنية كالشامانية والمغولية ، والبوذية ، والمانوية ، والزرادشتية ، والكونفوشيوسية) ، وكان أتباع كل دين ، أو مذهب وثني قد صنع له مكانًا يتعبد فيه بالطريقة التي يرتضيها ، ولديه أوامر الخان الصارمة بألاَّ يحاول أن يتطاول أو أن يلحق الأذى بأتباع أي مذهب أو دين آخر ، وكانت عقوبة ذلك الجرم هي الاعدام ، دون ما شفقة أو رحمة .

كان الخانات المغول يأمرون بعقد اجتماعات دينية في مجالسهم ، يحضرها كبار رجال الديانات السماوية وغير السماوية ، التي سبق ذكرها ، فيتناظرون ، وكل عالم في دينه يبرز ما لديه من حجج وبراهين على صحة معتقده ، فيحاول قصارى جهده الظهور على خصومه ، ولم يثبت أن الخان تعصب لدين معين ضد آخر . وتقول التقارير في هذا الخصوص ، إن الخان كان يصدر أوامره الصارمة ، قبيل أن تبدأ المناظرة الدينية من هذا النوع ، بألا يسيء أحد إلى أحد ، وإلا فإن صاحب الاساءة سوف تنزل به عقوبة الموت .

يحدثنا الرحالة «**وليم الروبركي**» وقد شاهد هذا النوع من المناظرة الدينية ، وقد جرت بين علماء الدين الإسلامي وأتباع الديانة المسيحية والبوذية ، إن «**منكَوقا آن**» دعا إلى هذه المناظرة ، وأنه أصدر أوامره إلى المتناظرين سلفًا ، وقبل أن تبدأ المناقشة ، بألاَّ يتجرأ أحد على التعدي على أحد وألا يتطاول على خصمة ، أو أن يسيْ إليه بأية كلمة نابية ، وألا يحدث ما يعوق المناقشة ، ومن فعل شيئًا من هذا فإن عقوبة هذا الذنب هي الموت^(١١) .

ثم بعد تلك المناقشة الدينية ، بين علماء الأديان في بلاط «القا آن» في عاصمة المغول «قرا ـ قروم» نجد أن الخان يعلن أمام المجتمعين عن طبيعة معتقده ودين المغول ، فلا يجبر أحدًا على اتباعه ، حيث يقول : «نحن المغول نؤمن بأنه لا إله إلا ربًا واحدًا ، به نحيا ، وبه نموت ، وإليه نتجه بقلوب مستقيمة ؛ ولكن بما أن الرب خلق أصابع مختلفة لليد الواحدة ؛ فإنه كذلك أعطى للناس طرقًا مختلفة (في كيفية التعبير له عن عبادتهم تجاهه)»^(١٢) .

يحدثنا **الجويني** أيضًا في هذا الشأن ، عن التسامح عند المغول في حرية الأديان والمتدينين ، فيقول : إنه على الرغم من أن الخان المغولي (وهو يعني «جنكيز خان») لم يكن مناصرًا لأي دين على آخر ، كما لم يكن من أتباع أية ملة بعينها^(١٣) ، فقد تحاشى كل تعصب ديني أعمى ، وتجنب تفضيل دين على دين أو رجحان بعضها على البعض الآخر . بل إن رجال العلم وزهاد كل طائفة دينية أو مذهبية في حقيقة الأمر ، كانوا يحظون منه بكل إكرام وإعزاز وتبجيل . فكما أنه ينظر إلى المسلمين بعين التبجيل والتوقير ، فإنه كذلك يُكِنُّ تقديرًا عاليًا لأتباع الديانات الأخرى ، المسيحيين ، وعبّاد الأوثان على حد سواء^(١٤) .

ونظرًا لتلك السياسة التسامحية التي كان ينتهجها القادة المغول ورجالهم فإننا نجد أنهم قد تأثروا بغيرهم من الأمم والشعوب التي أخضعت لهم ، وأصبحت جزءًا من إمبراطوريتهم الواسعة ، فالزعماء المغول وبنو جنسهم ، والذين فتحوا الأراضي الصينية (الشمالية منها والجنوبية) والهند الصينية ، أصبحوا من أتباع ديانات تلك الشعوب ، كالبوذية ، والكونفوشيوسية الصينية وغيرها . كما أن أولئك الذين أخضعوا أجزاء كبيرة من أراضي العالم

الإسلامي ، اعتنقوا الدين الإسلامي وبخاصة أحفاد «جنكيز خان» من أسرتي جوتشي خان (وهو الابن الأكبر للخان المغولي). وكونوا لهم دولة إسلامية في اقاليم القبتشاق ؛ وهي التي عرفت في التاريخ باسم «القبيلة الذهبية» ومن أسرة «تولي خان» (وهو الابن الاصغر لجنكيز خان) وهم الذين كونوا لهم دولة إسلامية أيضًا في إيران والعراق ، وعرفت في التاريخ بـ «الايلخانيين» . وكذلك اعتنق الإسلام أحفاد «تشغتاي» (وهو ابن «جنكيز خان» الثاني) في إقليمي ما وراء النهر والتركستان . وقد كان للمغول المسلمين الفضل الكبير في إنشاء دولة إسلامية في شبه القارة الهندية ، وإنشاء حضارة إسلامية في تلك البلاد المترامية الأطراف .

وبالإضافة إلى ذلك ، نجد أن المغول الذين حكموا في أقاليم أواسط قارة آسيا ، اعتنقوا الديانة المسيحية ، على المذهب النسطوري ، المنتشر هناك منذ ما يقرب من أربعة قرون سابقة . بينما نجد أن أولئك الذي ظلوا في منغوليا ، بقوا على ديانة الآباء والأجداد .

يحدثنا «**الجويني**» قائلاً : إن العديد من أبناء وأحفاد جنكيز خان قد اختاروا الديانة التي ارتضاها كل واحد منهم ، حسب ميوله ، وما يراه هو أنه صائب ، فبعضهم اختار الإسلام دينًا له وآخرون اعتنقوا المسيحية ، وبعضهم انتقى الدينانة الوثنية ، كما أن قومًا غيرهم ظل متقيدًا بديانة الآباء والأجداد وملتزمًا بها ، ولم يحد إلى غيرها من الديانات الأخرى ، وهذه الفئة أصبحت الآن أقل المجموعات الأخرى . ومع ذلك ، فرغم أنهم قد تبنوا ديانات كثيرة مختلفة ، فإن الغالبية الساحقة منهم كانت تتجنب كل ما من شأنه إظهار تعصب ديني أو مذهبي ، ولم ينحرفوا عن «ياسا جنكيز خان» يعني اعتبار جميع الأديان كدين واحد في المعاملة ، دون تمييز بينها ، أو تفضيل واحد على الآخر⁽¹⁵⁾ .

إن سياسة التسامح الدينية التي كان ينتهجها «**جنكيزخان**» وأبناؤه واحفاده من بعده ، ثم ما رواه لنا الرحالة الغربيون ــ في هذا الشأن ــ ثم ما ذكره الجويني في روايته السابقة ــ من أن هؤلاء المؤرخين دوّنوا معلوماتهم عن ديانة المغول كشاهدي عيان ــ كل ذلك يناقض بالكلية ما

أورده المؤرخ الأرمني المسيحي **«ابن العبري» حول سياسة جنكيز خان التي يدعي المؤلف بأنها كانت محابية مع الديانة المسيحية** ، وانه كان يميل مع أتباعها على حساب أتباع الديانات الأخرى(١٦) .

● ما يعتقده المجتمع المغولي في حياة الفرد الثانية بعد الموت ●

١ ـ الوفـاة :

من العادة التي كانت وما تزال متبعة في المجتمع المغولي البدوي أنه إذا أصيب فرد من الأسرة بمرض وأصبح لا يطيق الخروج من منزله ، فإنه يستلقي في داخل عربته المنزلية أو داخل خيمته المنصوبة على الأرض ، ثم يضع أقرباؤه علامة ـ شبيهة بالراية أو العلم ـ على مسكنه ، حيث يرقد المريض على فراشه ، لتشير على أن في داخل ذلك المنزل مريضًا . ومن العادة ألا يسمح لأحد بالدخول عليه للزيارة ما عدا من يقوم بخدمته والاشراف على العناية به ، وذلك اعتقادًا منهم بأنه قد تدخل مع الزائر روح شريرة أو ريحٌ قد تصيب المريض بالأذى أو تزيد من مرضه ، وتصبح مسألة شفائه ميئوسًا منها . ثم يظل المريض على تلك الحالة حتى يشفى .

أما إذا تفاقم مرضه ، أو كان قد أصيب بمرض عضال وتمكن منه ، وأصبحت بعدها الآمال في شفائه قد تلاشت ، فإنهم ينصبون عنده حربة أو رمحًا ، ثم يلفون حوله لبدًا أسود . ومن تلك اللحظة لا يستطيع أي شخص أجنبي أن يجرؤ على الاقتراب من مسكنه أو مساكن ذويه ، كما لا يسمح لأحد بزيارته . وحينما تأتي ساعة الاحتضار ، وتشتد سكرات الموت ، فإن جميع الحاضرين من أقربائه يتركونه وحده حتى يموت ، ومن ظل عنده حتى وفاته من واجبه ألا يذهب إلى مخيم الرئيس ، أو مساكن الخان المغولي ، كما أنه لا يسمح له بذلك إذا أراد ، حتى ينقضي ذلك الشهر الذي كان قريبه قد توفى في أيامه ، ويبدأ شهر جديد .

وعندما يتوفى ذلك المريض ، فإن أقرباءه يبدءون مراسيم النياحة عليه ، ويفعلون ذلك بأصوات مرتفعة ، ويبكون عليه لمدة ثلاثين يومًا ، أو أكثر أو أقل ، ومن واجب المجتمع تجاه أسرة ذلك المتوفي أن يعفوها من أي التزام تجاه العشيرة ، أو الدولة حتى تنقضي تلك السنة التي مات قريبهم فيها .

أما إذا كان المرء من الأسرة قد بلغ من السن عتيًا ، وأخذت منه الشيخوخة كل مأخذ ، فيقضى عليه بصورة متعمدة . وحول هذا الموضوع يحدثنا «**فينسنت البيوفيز**» بأن بعض الأبناء السيئين من المغول وبعضًا ممن يدين بالمسيحية أيضًا ، يقومون باعطاء آبائهم المتقدمين جدًا في السن بعض المواد الدهنية ـ وغالبًا ما تكون من ذيول الأغنام «الإلية» ـ ليأكلوها . لذلك فإن تلك الدهنيات تخمد قواهم المتداعية ، فيؤدي بهم ذلك إلى اختناقهم بسهولة . وعندما يموت ذلك الأب فإنهم يقومون بحرقه ، وبعد ذلك يجمعون الرماد الناتج من حرق الجثة ، حيث يحتفظون به كشيء غال لديهم . وقبيل الشروع في أكل الوجبات اليومية يذرون شيئًا من ذلك المسحوق على طعامهم(١٧) .

أما ما يُورِّثُه الميت ، فإنه يعطي لورثته ، فإن لم يكن له وريث من ذويه فيعطى إلى أحد غلمانه أو خدمه أو عبيده ، لأن ما يورثه الميت يعتبره الآخرون شيئًا منحوسًا ونكدًا ، لا يجوز أن يأخذه أحد من المجتمع ، أو أن تأخذه السلطة القائمة(١٨) .

٢ ـ مراسم وطقوس الدفن :

(أ) **كيفية دفن الفرد العادي** : بعد وفاة المرء ، تؤخذ جثته إلى العراء ، خارج المساكن ، حيث يتم دفنه في أي مكان يراه المشيعون مناسبًا لمواراة جسده . وهناك يحفرون حفرة كبيرة ، حسب مكانة الشخص ، لتتسع للجثمان وما يدفن معه من متطلباته التي يعتقدون أنه سيحتاجها في حياته الثانية . ويتم دفن الرجل العادي بشكل أبعد ما يكون إلى السرية ، تمامًا بعكس الوضع في حالة وفاة الخان ـ كما سيرد ذلك ، ويدفن معه واحد من بيوته ـ إن كان يملك أكثر من منزل ـ حيث يجلسونه في وسط البيت ، ثم يضعون أمامه طاولة طعام ، واناءً مملوءً

باللحم ، وقدحًا مملوءة أيضًا بحليب فرس . كما يدفنون معه فرسًا ، ومعها مهرها ، وحصانًا وعليه لجامه وسرجه ، وكامل عدته . ثم يذبحون حصانًا آخر على قبره ، فيسلخون جلده ، ويأكلون اللحم ، ويأتون بجلده ، فيملئونه قشًا ، ويجعلونه واقفًا على أعمدة ، عمودين أو أربعة أعمدة على القبر. أما عظام الحصان المذبوح ، فتؤخذ مجموعة ثم تحرق بالنار ـ اعتقادًا منهم ـ على روح المتوفي .

أما إذا كان الشخص المتوفي من الناس الأغنياء والموسرين ، فلا تختلف مراسم دفنه عن الرجل العادي أو المغمور اختلافًا كبيرًا ؛ إلا أنه يدفن في أغلى وأجمل لباس كان يمتلكه ، ويتم دفنه في مكان بعيد عن الآخرين ، أي بشكل أكثر سرية مما عليه الوضع في حالة الرجل العادي ، خشية أن يعرف مكان مواراة جثمانه فيما بعد ذلك(١٩) .

أما الغرض من دفن هذه الأشياء مع الميت فهو ـ كما يعتقدون ـ أن المتوفي سيعيش مرة ثانية وأنه سيحتاج إلى تلك الأشياء ، فلا ينقصه أي شيء ، فلديه مسكنه حيث يجعله مأواه ، وفرسه حيث تمده بما يحتاجه من الحليب ، ولديه حصانه الذي يمتطيه عند الحاجة إليه في سفراته ، ثم يستطيع بواسطة فرسه وحصانه أن يزيد من تعداد خيوله وأفراسه . قد يكون عدد الأفراس والخيول ، التي تدفن مع الميت ، أكثر من هذا العدد **(أي أكثر من حصان وفرس)** وكذلك بالنسبة للخيول التي تذبح على قبره ، وتعلق جلودها فوق الضريح .

ويبدو لنا أن مسألة دفن الميت ومعه أشياء من هذا القبيل ، ثم قتل أعداد من الخيول والأفراس ، وما يتعلق بذلك من اعتقادهم في الحياة الثانية ، هي عادة متبعة وتقليد منتشر لدى الأويغوريين والنيمان وغيرهم من سكان مناطق أواسط آسيا . وحول هذا الموضوع يحدثنا ابن فضلان (ذلك الرحالة المسلم الذي عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين ، والذي جاب قسمًا كبيرًا من أقفار أواسط آسيا) قائلاً : إنه عندما يموت الفرد منهم ، فإنهم يحفرون حفرة عظيمة يبلغ حجم المنزل ، ثم يأتون إليه ويلبسونه قرطته (السترة أو الجاكيت أو الدثار) ويقلدونه قوسه ويضعونه في حزامه ثم يضعون في يده قدحًا ،

مصنوعًا من الخشب ، وفيه شراب ، ويتركون أمامه إناءً خشبيًا فيه شراب أيضًا . ثم يحضرون كل شيء له ، من حاجيات وأواني منزلية فيضعوها معه في تلك الحفرة ، والتي هي بمثابة منزل له . ثم يُجلسون ذلك الميت في داخل المنزل ، ثم يجعلون سقف تلك الحفرة من الطين ، وهي تظهر بمظهر القبة . بعدها يعمدون إلى خيوله فيقتلون مائة ، أو مائتين وأحيانًا يذبحون واحدًا منها فقط ، معتمدين في هذا الشأن على كثرة أو قلة ما يملكه ذلك المتوفي ، فيأكلون لحوم تلك الخيول ، ويتركون رءوسها وقوائمها وجلودها وذيولها ، حيث يعلقونها على أعواد من الخشب فوق ذلك الضريح . أما الغرض من ذلك فهو أن هذه الخيول هي التي سيركبها ـ حسب زعمهم ـ إلى الجنة . وإذا ما كان الشخص المتوفي رجلاً شجاعًا ومقدامًا ، وأنه كان قد قتل من الرجال واحدًا أو اثنين أو أكثر ، فانهم ينحتون تماثيل من الخشب على كهيئة صور الآدميين بعدد من قتلهم ، ثم يضعونها معه في داخل قبره ، ويقولون : «إي هؤلاء عبيده الذين سخدمونه في الجنة» .

وما إن يسمع أقرباء الميت هذه المقالة من ذلك الإنسان العجوز ، حتى يعمدوا إلى الخيول فيذبحوها ويأكلوا لحومها ، ثم يعلقون الباقي ـ كما شرحنا ذلك أعلاه ـ إلى جانب الضريح . ثم بعد هذه الحادثة بيوم أو يومين ، يأتي إليهم ذلك الرجل المسن ، ويخبرهم بأنه رأى في منامه الميت ، وأنه قال له : «قل لأسرتي ورفاقي بأنني قد لحقت بأولئك الذين كانوا قد سبقوني ، والآن قد ارتحت من عنائي(٢٠)» .

شاهد الراهب «**جون البلانو الكربيني**» سفير «**البابا انوسنت الرابع**» إلى بلاط الخان المغولي ، بأم عينيه مراسم الدفن هذه عند المغول ، كما سمع ذلك ممن شاهدها . وهنا يضيف «جون» بأنه من الأشياء التي تدفن مع الميت حاجياته الثمينة ، مثل ذهبه وفضته ، وكذلك سلاحه (**القوس والسهام ، والرمح ، والخوذة ، والسيف**) وملابسه . كذلك يدفن معه خدمه رجال ونساء . أما عربته المنزلية . فإنها تكسّر ، ويتلف بيته (**هذا غير البيت الذي كان قد دفن معه**) . كما أن أحدًا لا يجرؤ أن يتفوه باسمه بعد وفاته ، ويظل ذلك الوضع قائمًا بعد وفاته ،

حتى الجيل الثالث ، أي أن الميت يُنْسَى تمامًا بمجرد وفاته ، ماعدا ما يقدم إلى روحه من طعام وشراب وغير ذلك .

أما المؤرخ الأرمني «**كيراكوس**» فيذكر أنهم يبقرون بطن الخيل ، فيستخرجون اللحم دون العظام ، فيحرقون الامعاء والعظام ، ويخيطون الجلد حتى يصبح متكامل الجسم وكأنه حي ، ثم يَبْرُون رأس خشبه كبيرة غليظة ، فيدخلونها من مؤخرته حتى تظهر من فيه ، فيعلقونها على مرتفع عال فوق القبر ، أو على شجرة كبيرة(٢١) .

(ب) مراسم وطقوس دفن الرؤساء وكبار القوم : لا تختلف مراسم وتشييع ودفن رؤساء وكبار القوم في المجتمع المغولي اختلافًا كبيرًا عن تلك التي تُجرى للموتى من الناس العاديين أو الأغنياء ، فعندما يتوفى الرئيس ، أو كبير القوم ، فإن المشيعين يذهبون بصفة سرية وفي تكتم تام بالجثمان إلى خارج المخيمات ، وبعيدًا عن المساكن . وهناك يقومون ـ بعد اختيار المكان المناسب ـ بإزالة العشب بعناية ، ومعه جذوره ، وما علق بها من طين ، أو تربة ، ثم يضعونها جانبًا . وبعد ذلك يحفرون حفرة كبيرة جدًا ، ثم يُجوِّفون حفرة أخرى لوضع الجثمان بها . كما يدفنون إلى أسفل من ضريح السيد أحب عبيده إليه حيًا ، حيث يضطجع في ذلك القبر لبرهة وجيزة ، ثم يؤخذ إلى الخارج كي يستعيد النفس ، ثم يعيدونه ، ويضطجع كما فعل في الحالة الأولى . وهكذا يكررون هذه العملية ثلاث مرات . فإن استطاع أن ينجو من الموت بعد المرة الثالثة ، فإنه يصبح رجلاً حرًا طليقًا ، ويستطيع أن يفعل ما يفعله الأحرار ، كما أنه يصبح من الرجال ذوي الاعتبار والرتب العالية بين رجال المجتمع ، وذا مكانة مرموقة بين أقارب وأصدقاء ذلك السيد المتوفي .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإنهم يدفنون معه مسكنًا له وفرسًا ومهـرا ، وحصانًا ، وطعامًا وشرابًا ، ومائدة ، وذهبًا وفضة ـ كما هي الحالة بالنسبة للرجل المتوفي من الناس العاديين ، أو الأغنياء . ثم يعيدون العشب وما عليه من طين وتراب عالق به بعناية ، على ظهر تلك الحفرة ، فيصبح شكل الضريح كتلٌ صغير ، ولا يبدو عليه أثر الحفر ، فلا يستطيع أحد معرفة المكان

وفي الحقيقة ، فإنه كلما كان الشخص المتوفي ذا مكانة كبيرة في مجتمعه كلما كبر حجم قبره تحت الأرض وكثر عدد ما يذبح على قبره من الخيل وغيرها ، وما يدفن معه من الأتباع والأواني المنزلية ، وأمتعة يحتاجها للاستخدام في حياته الثانية ، فيحاول أقرباؤه أن يجعلوا ــ حسب اعتقادهم ــ حياته الثانية لا تقل عن وضعه ، وما كان عليه حاله في حياته الأولى قبل وفاته ، كذلك تزداد سرية مكان الدفن كلما كان المتوفي كبيرًا في قومه وذويه .

(جـ) مراسم وطقوس ما بعد الوفاة والدفن : بعد وفاة المرء وبعد أن تتم مراسم دفنه ، وطقوس نحر الخيل وعمل الأضحيات بالطريقة التي أوضحناها ، فإن المجتمع المغولي لا يتعامل مع أقرباء ذلك المتوفي حتى تتم عملية تنقيتهم وتطهيرهم بالنار ، تحت اشراف كهنة أو عرافين ، رجالاً كانوا أم نساء . وتتم عملية تنقيتهم بالطريقة التالية ، التي وصفها لنا «جون البلانو الكربيني» كما رآها هو ، وكان هو ممن نقى بتلك النار قبل أن يسمح له بالدخول على الخان المغولي .

يقول هذا القس : إنهم يوقدون نارين ، ثم يقيمون حربتين ، أو رمحين ، وتربط رأسا الرمحين بحبل بالقرب من تلك النارين ، ثم يربطون في هذين الرمحين حبلاً من **البقرم (وهو قماش قوي جدًا ، يستعمل لتجليد الكتب)** . بعد ذلك يأتون بأقرباء المتوفي ، الرجال والنساء والأطفال ، ويجعلونهم يمرون من تحت ذلك الحبل أو الوشاح المربوط في الرمحين المنصوبين إلى جانبي النار ، ثم بالضرورة يصبح مرورهم من بين هاتين النارين ، وبعد أن يمر الأفراد ، يُؤتى بجميع ما تملكة أسرة المتوفي ، من خيل وأفراس ، وثيران وأبقار وأغنام ، وماعز ، وجمال وغير ذلك ، ثم بالأمتعة من لباس ، وأواني ، وعربات ، ومساكن ، فتمرر جميع تلك الحيوانات والأمتعة من بين النارين ، ليتم تطهيرها ، وتنقى مما علق بها ــ حسب زعمهم ــ من أرواح شريرة نتيجة لوفاة ذلك المرء من تلك الأسرة .

ويقوم بالاشراف على عملية التنقية والتطهير هذه ــ كما قلنا ــ عرافون ، وغالبًا ما يكونون من النساء الكاهنات . حيث تقف على جانبي النار امرأتان ــ كل واحدة على جانب من إحدى

النارين ، وفي أثناء عملية مرور الأفراد ، والمواشي ، والعربات والمنازل والأثاث ، تنضحان ماءً على المارين ، وترددان تعاويذ معينه ، فإذا ما وقع شيء على الأرض ، أو انكسرت عربه ، أو سقط منها شيء ، أو وقع على الأرض حيوان من تلك الممتلكات أثناء عملية مرورها بين النارين ، فإن جميع ما يسقط أو يقع أو ينكسر يصبح مِلْكًا لهاتين المرأتين الواقفتين على جانبي النارين .

أما إذا أصابت صاعقة إنسانًا وقتلته ، فلا بد أن ينقى كل فرد كان يسكن معه ، أو كان من أسرته بالنار ، وبالطريقة التي سلف ذكرها ، قبل أن يدخل معه أحد من بقية أعضاء مجتمعهم في أي نوع من أنواع المعاملات . فلا أحد يلمس خيمته ، ولا فراشه ، ولا عربته ولا لبده ، ولا ملابسه ، ولا أي شيء من أشيائه الخاصة به ، إذ يعتبرون ذلك كله أشياء مزدراة ونجسة ، فلا تلمس حتى تنقى من تلك النجاسة التى علقت بها ، ومن أرواح شريرة تكمن فيها ، وذلك من خلال تمريرها من بين نارين متقدتين(٢٢) .

الهوامش

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٣٦٠ .

(٢) لمعلومات وافية عن ابن الأثير ومؤلفه «الكامل في التاريخ» انظر ما قلناه في كتابنا «أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الاسلامي» طبعة بيروت ١٤٠١ هـ ص . ص : ٢٦ ـ ٢٧ .

---

(٣) «تنكَري» كلمة تركية ـ مغولية ، تعني : الحامي المقدس : الاله ا"-اني ؛ الرب المعظم ؛ الاله الخالد .

(٤) وليم الربركي ، رحلة وليم الربركي ، تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص ١٤٠ .

(٥) نفس المرجع السابق ، ص : ١٤١ .

(٦) ينطبق كلام ماركوبولو في الحقيقة على المجتمع الصيني الزراعي ، حيث كانت الصين تمثل جزءا من إمبراطورية المغول المترامية الأطراف .

(٧) ماركوبولو «وصف العالم» جـ ١/ ص ١٧٠ ـ ١٧١ (نقلاً عن «تاريخ المغول» لـ : برتولد اسبولر ، ص .ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٨) حول هذا الموضوع ، انظر : جون البلانو الكربيني ، «تاريخ المغول» تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص ٨ ـ ٩ ؛ وليم الربركي ، «رحلة وليم الربركي» نفس المرجع ، ص ١٤٠ ؛ كذلك : و.و. روكهل «رحلة وليم الربركي إلى الأجزاء الشرقية من العالم» ، ص.ص : ٨٠ ـ ٨٢ ، الحاشية ٢ ؛ ج .أ. بويل ، «كيفية تقديم الحصان كفداء عند المغول خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر» (المجلة الآسيوية المركزية) ١٩٦٥ م ، جـ ١٠ ، قسم ٣ ـ ٤ ، ص. ص : ١٤٥ ـ ١٥٠ ؛ ج. ج. ساوندرز «تاريخ الفتوحات المغولية» لندن ، ١٩٧١ م ، ص . ص : ١٣ ـ ١٤ .

(٩) ساوندرز «تاريخ الفتوحات المغولية» ص : ١٣ .

(١٠) جون الكربيني ، «تاريخ المغول» تحقيق دوسون «البعثة المغولية» ، ص ١٢ .

(١١) المعلومات وافية عن هذا الموضوع ، انظر : وليم الربركي ، «رحلة وليم الربركي» تحقيق ، دوسون ، «البعثة المغولية» ص. ص : ١٨٩ ـ ١٩٥ . وما جرى في خلال تلك المناقشة الدينية ، التي حضرها القس الرحالة نفسه .

(١٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(١٣) لعل الجويني كان يقصد أنه لم يكن من أتباع أي دين سماوي معين ، فهو يعتبر «جنكيز خان» من أتباع الديانات الوثنية .

(١٤) الجويني ، جهانكشاي ، جـ١/ ص : ١٨ ، الترجمة الانجليزية ، جـ ١/ ص : ٢٦ .

(١٥) الجويني جهانكشاي ، جـ ١/ ص . ص : ١٨ ـ ١٩ ، الترجمة الانجليزية ، جـ ١/ ص : ٢٦ .

(١٦) ابن العبري ، كريكوري ابو الفرج ، تاريخ مختصر الدول ، ترجمة المؤلف من السريانية إلى اللغة العربية ، حققه ، صاليحاني ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ص : ٢٣٠ .

(١٧) فينسنت البيوفيز (نقلاً عن : روكهل «رحلة القس وليم الربركي» س . ٨٠ ـ ٨١ ، حاشية رقم ٢ في نفس الصفحتين .

(١٨) الجويني ، جهانكشاي ، جـ ١/ ص ٢٥ ، الترجمة الانجليزية ، جـ ١/ ص ٣٤ .

(١٩) فينسنت (نقلاً عن : روكهل «رحلة القس وليم الربركي» صر . ص : ٨٠ ـ ٨١ ، حاشية رقم ٢ .

(٢٠) اعتمدت في ذلك على الأستاذ : ج. أ. بويل ، «كيفية تقديم الحصان كفداء عند المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر» ص . ص ١٤٩ ـ ١٥٠ مع حواشيها ، الذي كان بدوره قد نقل عن ترجمة : أ. ب كوفلفسكي ، طبعة خركف ، ١٩٥٦ م ، لعمل ابن فضلان ص : ٣٣٥ من المتن (ص ١٢٨) من الترجمة .

(٢١) حول هذا الموضوع ، انظر جون الكربيني ، «تاريخ المغول» ، تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص : ١٣ ، وليم الربركي «رحلة وليم الربركي» نفس المصدر ، ص : ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ «كيراكوس الاكنجك عن المغول» .

(٢٢) جون البلانو الكربيني ، «تاريخ المغول» تحقيق ، دوسون «البعثة المغولية» ص : ١٤ .